
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ملاحظات عامة حول التأليف الكولونيالي الاسباني المتعلق بالمغرب

الاستاذ بوبكر بوهادي
كلية الآداب الجديدة

حظي المغرب منذ أن أصبح مجالا استعماريا تتنافس من أجل السيطرة عليه القوى الأوربية، باهتمام الدارسين الأوربيين على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم وأهدافهم، حيث أصبح المغرب موضوعا تتقاسمه مختلف المباحث والتخصصات العلمية والأدبية، وهو ما نتج عنه تراكما معرفيا جديرا بالدراسة والتقصي، نظرا لملامسته مختلف أوضاع المغرب وجوانب متعددة من ماضيه وحاضره.

وبالرغم من الطابع الاستعماري الذي ميز التأليف والبحث الاستعماريين وبينهما للمقولات والأحكام الهادفة إلى المساس بمقومات المغرب الحضارية وتشويه إرثه التاريخي، فإن جوانب هامة من ذلك التأليف وذلك البحث تنطوي على درجة كبيرة من الدقة والموضوعية، فأصبحت تكتسي معهما سلطة مرجعية تفرض نفسها على كل باحث في أوضاع المغرب وتاريخه.

وإذا كان نصيب فرنسا من ذلك البحث قد استأثر بالجزء الأوفر منه على الصعيدين الكمي والكيفي، فإن البحث الاسباني حول المغرب، لا يقل أهمية بالرغم من عدم التكافؤ في الامكانيات والحوافز ومجالات النفوذ بين الاستعمارين الفرنسي والاسباني بالمغرب.

وقد قطع البحث الكولونيالي الاسباني المتعلق بالمغرب مراحل متعددة ومختلفة، بدأت بصفة خاصة مع نهاية القرن 19، واستمرت طوال عهد الحماية، ومازال ينتج إلى يومنا هذا كتابات مختلفة. وخلف لنا هذا البحث دراسات وأبحاث تتباين أهميتها العلمية والتاريخية حسب طبيعة منطلقاتها والأهداف المتوخاة منها، والأشخاص الذين قاموا بإنجازها أو ساهموا في وضعها.

وفي محاولته لمقاربة بعض جوانب وأوجه البحث الكولونيالي الاسباني المتعلق بالمغرب خلال فترة الحماية، سأعرض لأهم المراحل التي مر منها والخصائص التي تميز بها، انطلاقا من بعض نماذج الكتابات والدراسات الاسبانية التي وقفنا عليها. وقد ارتأينا ان نقسم المراحل التي مر منها إلى ثلاثة مراحل، تتميز كتابات كل مرحلة بخصائص معينة، تجعلها تختلف عن المراحل الأخرى دون أن يعني ذلك قطيعة فيما بينها، ذلك أن تلك الكتابات ظلت تشترك عبر مختلف المراحل بمميزات وخصائص عامة تجمع بينها، وهذا التميز ـــ حسب المراحل ـــ بقدر ما أخذ بعين الاعتبار طبيعة الخطاب المتداول والمواضيع المدروسة وجدية تناولها، فإنه كذلك اعتمد على خصوصيات المراحل التي مر منها الاستعمار الاسباني بالمغرب، والتي استوجبت نهج سياسات مختلفة، حيث كان لكل مرحلة مشاكلها وأولوياتها انعكست بشكل واضح على مستوى مضمون وحطاب الكتابات الاسبانية.

ـــ المرحلة الأولى : مرحلة الكتابات العسكرية

تمتد هذه المرحلة على امتداد الفترة التي استغرقها العمل الاستعماري العسكري من أجل إخضاع منطقة الحماية للسيطرة الاسبانية، والقضاء على مقاومة القبائل بها. فهي إذن تمثل تلك الفترة التي كان خلالها للعسكريين دورا كبيرا وأساسيا في تثبيت دعائم الاستعمار الاسباني بالمغرب، فساهم هؤلاء بنصيب وافر من كتابات كانت في مجملها عبارة عن مشاهدات ومعاينات ومذكرات، ووصف لأوضاع منطقة الحماية الاسبانية، بحيث تميز التأليف الكولونيالي خلال هذه الفترة بمساهمة كثيفة للعسكريين، إلى جانب بعض موظفي إدارة الحماية أو بعض الصحفيين ورجال الأعمال والمستعمرين. ومع كل هؤلاء فقد بقي ذلك التأليف عموما بعيدا عن ميدان البحث الأكاديمي الدقيق.

وتجدر الاشارة على أن مساهمات هذه المرحلة في ميدان البحث الكولونيالي الاسباني، والدراسات التي أنجزها العسكريون حول مجمل القضايا المرتبطة بالمغرب، تصب عموما في إطار حركة الاستفراق أو الافريقانية الاسبانية El AFricanismo Español، كأهم حركة فكرية وإديولوجية ارتبطت بالعمل الاستعماري الاسباني، وكانت تؤمن بدور إسبانيا الروحي والحضاري بالمغرب، وتعمل من أجل تسهيل القيام بذلك الدور عن طريق عقد المؤتمرات، وتأسيس

الجمعيات والقيام برحلات استكشافية، وإنجاز دراسات مختلفة، كان الهدف من ورائها التعريف بأهمية العمل الاستعماري بالمغرب بالنسبة لمصالح اسبانيا الحيوية والوطنية، وتحفيز الرأي العام الاسباني لمساندة ذلك العمل وتدعيمه. وإذا كان الخطاب الذي ميز هذه الحركة في نهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين يقوم على الدعوة إلى العمل السلمي والحضاري كما تجلى في كتابات وأفكار خواكين كوسطا J.Costa وكويبيو[1] COELLO، فإن كتابات العسكريين خلال هذه المرحلة ستغير مجرى ذلك الخطاب باعتمادها خطابا عدوانيا يدعو إلى استعمال القوة والعنف لاخضاع القبائل والسيطرة على المغرب، ذلك أن عنف المقاومة المغربية وصعوبة المجال وتذبذب السياسة الاسبانية، كلها معطيات كانت وراء تبني ذلك الخطاب، وجعلت الجيش الاسباني يرى نفسه المدافع الحقيقي على مصالح اسبانيا الاستعمارية، وأصبحت بالتالي كتابات رجالاته المعبر عن الطموح الوطني الاسباني من أجل صيانة تلك المصالح.

ومن خلال الاطلاع على كتابات هذه المرحلة يتبين أن معرفة أصحابها بالمغرب — منطقة الحماية الاسبانية — لم تكن وليدة فترة الحماية، بل سبق لبعضهم أن وُجد بالمغرب قبل تلك الفترة، انطلاقا من المراكز التي كانت تحتلها اسبانيا بشمال المغرب كما هو الشأن بالنسبة لتريفينيو F.Trivino الذي كان يعتبر لطول المدة التي قضاها بشمال البلاد منذ 1906، أحد المتخصصين في القضايا المغربية، ومن كتاباته التي وقفنا عليها :

«من المغرب الاسباني» «Del Marruecos Español» و«خمس سنوات بالمغرب» «Cinco años en Marruecos» هذا إلى جانب أولئك الذين وفدوا على المغرب مع بداية فترة الحماية وشاركوا في العمل الحربي من أجل القضاء على مقاومة القبائل للتغلغل الاسباني، وممن أطلعنا على كتاباتهم :

Emillio corredor, capitan de Estado Mayor : «Historia de la zona de protectorado».

Figueras-G : Comandante : «Campaña de beni Aors»

Hontoria. G : «La opinion de los demas como tentativa de atraccion de los Judios Españoles»

---

(1) V. Morales Lezcano: España y el norte de Africa, El protectorado en Marruecos 1912-1956. U.N.E.D 1986 p 69.

Nicolas Moros, comadante de Estado Mayor : «La colonizacion en el Norte de Africa».
Pablo Nieto, de la armada : «En Marruecos»
Foyniguez, capitan de ingenieros : «por tierras de Marruecos.»

وعموما فإن هذه الكتابات على اختلاف مواضيعها ومؤلفيها تتميز عند تناولها للقضايا المرتبطة بالمغرب، بخصائص سنعمل على إبراز أهمها :

1 ــ البحث عن مشروعية العمل الاستعماري.

لجأ أغلب أولئك المؤلفون إلى البحث عن مشروعية عمل اسبانيا الاستعماري، من خلال تركيزهم على ما كانوا يسمونه بالحقوق التاريخية لاسبانيا بالمغرب والمتمثلة في الروابط التاريخية بين البلدين، وكذلك في المراكز التي تحتلها اسبانيا بشمال المغرب ــ سبتة ومليلية ــ وهذه الحقوق أصبحت تكتسي حسب زعم بعضهم «قيما تاريخية كبيرة»(2)، لما كلف الحفاظ عليها من خسائر مادية وبشرية كافية لاعطاء الدليل على مشروعيتها.

وإذا كانت حركة الاستفراق EL AFricanismo نفسها تتشبث وتدافع عن نفس تلك الحقوق، وتعتبرها كأساس لدخول إسبانيا ووجودها بالمغرب فإن العسكريين سيركزون بصفة ملحوظة على ما تم اكتسابه من تلك الحقوق بواسطة الغزو والعمل الحربي، لذلك ستعطي كتاباتهم أهمية كبيرة لحرب تطوان أو ما تسميه الاسطوغرافيا الاسبانية بحرب افريقيا. واعتبارها المنطلق الأساسي لتغلغل اسبانيا داخل المغرب. وعموما فإن الخطاب الذي تبنته الكتابات العسكرية يقوم على أساس التركيز على الفعل العسكري، نظرا لطبيعة مؤلفيها الذين اعتقدوا دائما أن ذلك العمل هو الكفيل بتحقيق طموحات إسبانيا الاستعمارية، وتثبيت حقوقها التاريخية بالمغرب. وبواعث وأسباب هذا الخطاب تكمن فيما كان يشعر به الجيش الاسباني الذي ينتمي إليه أصحاب هذه الكتابات، من خيبة أمل وشعور بالأحباط من جراء فشل إسبانيا في الحفاظ على مكتسباتها الاستعمارية في كوبا والفلبين، في وقت تضاعفت خلاله مكتسبات القوى الأوربية المنافسة لها في المغرب.

إن إثارة الحديث عن الحقوق والمكتسبات التاريخية، والاحتماء وراء خطاب

---

(2) F. Triviño : «Del Marruecos Español» Melilla 1919 pp 39-40.

يدعو ويقوم على العمل العسكري، كما تبلور في هذا الصنف من الكتابات، يعكس ، يعكس بوضوح ضعف إسبانيا وعدم قدرتها على بلورة عمل استعماري كبير، لغياب بنيات اقتصادية متطورة، قادرة على خلق ظروف وحوافز مشجعة لذلك العمل، هذا إلى جانب ضآلة النفوذ الذي ميز حضورها وسط المحافل الأوربية عندما كان الأمر يتعلق بقضية المغرب وتضارب المصالح الاستعمارية حوله.

2 ـــ جهل الكتابات العسكرية لحقيقة الأوضاع بالمغرب :

إذا كان تجاهل الكتابات الكولونيالية لحقيقة الأوضاع بالمغرب وتشويهها، أمر يبرره العمل الاستعماري نفسه، فإن التصورات التي بلورتها بعض الكتابات العسكرية الاسبانية حول مختلف أوضاع منطقة الشمال، تنم عن جهل حقيقي بتلك الأوضاع، لدرجة تجعل القارىء لتلك الكتابات أمام واقع لا يوجد إلا في مخيلة أصحابها. فالمعلومات التي تداولتها حول منطقة النفوذ الاسباني تبين جهلا واضحا لحدودها ومساحتها، حيث تتفاوت الأرقام وتتضارب حسب كل مؤلف(3). وأغلب تلك المعلومات كان مصدرها المناطق التي نجحوا في التوغل داخلها لا سيما بالجهة الغربية، فانطلاقا من معطياتها الجغرافية والاقتصادية المغربية نسبيا، قام بعض أولئك المؤلفون بتعميم ما عينوه هناك على بقية منطقة حمايتهم التي استعصت عليهم نتيجة المقاومة المستميتة لسكان قبائلها، لذلك جاء وصفهم ينطوي على مبالغة كبيرة، توحي بغنى المنطقة وتعدد مواردها. لكن هذا لا يلغي في بعض الاحيان تعمد تلك المبالغة والمغالات في وصف المنطقة من أجل إثارة شهية الرأي العام الاسباني الذي كان يعادي العمل الاستعماري وحفزه على تشجيعه، وأيضا للرد على بعض المناهضين لذلك العمل بحجة فقر المنطقة وضعف مواردها.

وستظهر الكتابات التي جاءت بعد هذه المرحلة، وبعدما أتيحت الفرصة للتعرف الشامل على المنطقة والسيطرة عليها والقضاء على مقاومة قبائلها، أن ما جاء في كتابات العسكريين هي مغالطات فرضتها عزلتهم وحلمهم بمنطقة أكثر غنى ورفاهية.

---

(3) الأرقام المتعلقة بمساحة المنطقة نجدها تصل عند بعض المؤلفين إلى نصف مليوم كلم² Pablo Nieto : «En Marruecos 1912 p 13

وسوف نلمس نفس الجهل والمغالطات فيما يخص تناول المظاهر الاجتماعية والسياسية للمنطقة، فمقاربة السكان من خلال واقعهم القبلي كانت مقاربة ضعيفة، لم تستوعب بعد التقسيم القبلي للمنطقة، وضبط القبائل وتصنيفها حسب المجموعات وانتشارها على مجالها الجغرافي.

أما الصورة التي حاولت رسمها لسكان المنطقة فهي عموما تنطوي على تشويه واضح، حيث يميزها التطاحن والفوضى. وتلخص لنا كلمة مورو التي كان يتم استعمالها لنعت أولئك السكان، ما سبق ذكره من تشويه لما أعطي لتلك الكلمة من مذلول تحقيري يفيد الهمجية والتوحش. لكن هذا لم يمنع بعض المؤلفين من تجاوز هذا النعت باستعمال كلمة أهالي Indigenas غير أن تسمية المغاربة سوف لن تظهر إلا في مرحلة لاحقة كما سنبين ذلك.

أما على المستوى السياسي فبالرغم من اعتراف الكتابات العسكرية بالمؤسسة المخزنية وبوجود السلطان على رأسها، فقد تم اعتبارها مؤسسة طفيلية قائمة على الجور والتعسف، وتزيد من اضطراب حياة السكان عوض ضمان الامن والحماية لهم[4]، وهو ما سيحققه المخزن بإضفاء صورة الجهاز المتكامل عليه، لما تحظى به سلطته من احترام وطاعة السكان[5].

3 ــ مقاومة الاستعمار الاسباني

من أهم مميزات الكتابات العسكرية، أنه من خلال وصفها للعمليات الحربية لضمان التسرب والسيطرة داخل منطقة الحماية الاسبانية نقف على مختلف أوجه المقاومة التي أبدتها قبائل تلك المنطقة، سيما وأن مؤلفيها من الذين واجهوا تلك المقاومة وعاينوا فعاليتها وقوتها[6]، وإذا كانوا في البداية قد استصغروها، واعتبروها مجرد امْتداد للتناحر والقتال السائد بين السكان، فإن عنفها وقوتها حالتا

(4) «En La realidad el despotismo mas brutal, la arbitrariedad mas Liviana, el cohecho mas asqueroso, era la que emperaba» Triviño, op. cite p 29

(5) Gonzalez Jimenez : «Marruecos en 1930» pp 101-107.

(6) Berenguer Fuste : -«campanas en el Rif y yebala 1921- 1922» Madrid 1923.

-«La guerra de Marruecos» Madrid 1918

-«El ejercito de Marruecos» Tetuan 1922.

دون إخفاء المرارة التي أصبح يشعر بها الجيش الاسباني لا سيما عندما اتخذت اشكالا تنظيمية محكمة مع محمد بن عبد الكريم الخطابي، الذي أجبر ذلك الجيش على إعلان فشله وانهزامه، أمام أولئك الذين تم نعتهم بالقصور عن كل تنظيم وتكتل وانسجام.

ودون الخوض في تفاصيل المعارك التي خاضها الجيش الاسباني ضد المقاومة المغربية، والتي أسهبت في تفاصيلها الكتابات العسكرية سنحاول معرفة التبريرات التي استكانت إليها في معالجتها لتلك المقاومة فأغلب العناصر التي ارتكزت عليها لتبرير الانهزامات السابقة بقيت غامضة وبعيدة عن الواقع الحقيقي، ويتجلى ذلك في انتقادات السياسة الاسبانية وتدبدبها، أو في اتهام قوى خارجية تناهض وجود اسبانيا بالمغرب، قوى غامضة ومتناقضة، مرة تتمثل في الشيوعيين ومرة في الرأسماليين وأخرى في المسلمين.

مثل هذه التبريرات الواهية ناتجة عن استغراب أصحاب تلك الكتابات للقوة والفاعلية التي ميزت المقاومة المغربية التي فاجأتهم بما لم يكونوا يستطيعون تصوره وقبوله.

هذه جملة ملاحظات استقيتها من قراءة أولية لنماذج من الكتابات العسكرية الاسبانية التي تم إنجازها خلال بداية الفترة الاستعمارية. وهي ملاحظات بالرغم من إبرازها لسلبيات تلك الكتابات، لا تنفي بالطبع وجود بعض منها، بدل أصحابها مجهودات واضحة من أجل مقاربة صحيحة للواقع المغربي آنذاك.

المرحلة الثانية :

مرحلة تتميز بخصائص معينة، وتمتد من نهاية المقاومة الريفية أو ما تصطلح عليه الكتابات الاستعمارية بالتهدئة Pacificacion إلى قيام الحرب الأهلية واستلام الجنرال فرانكو Franco للسلطة بإسبانيا، فهي بذلك تستغرق فترة حكم الجمهورية الثانية التي ستعرف معها السياسة الاستعمارية بعض المتغيرات، اعتبارا لمستلزمات سياسية داخلية تهم الوضع الاسباني، وكذلك للعبء الثقيل الذي شكله المغرب بالنسبة لخزينة اسبانيا واستنزافه لموارد مالية وبشرية هامة.

كل هذا استوجب القيام باتخاذ اجراءات كفيلة بمعالجة الأزمة المغربية، أولا

عن طريق التعرف على حقيقة الأوضاع بالمغرب ذلك أن الفترة السابقة التي تميزت بالحروب والاضطرابات لم تسمح بالكشف الواسع والتقصي الدقيق لتلك الأوضاع. ثانيا إدخال الاصلاحات الكفيلة «بعقلنة» العمل الاستعماري أي جعله أكثر مردودية وبالتالي أقل استنزافا لخزينة الدولة ومواردها. وسيصبح المغرب — منطقة الحماية الاسبانية — مع الجمهورية الاسبانية صلة وصل لها مع العالم العربي والاسلامي لاعتبارات سياسية ودبلوماسية.

فكل هذه المتغيرات والتطورات التي فرضتها طبيعة السياسة الاستعمارية للجمهورية الاسبانية، سنجد لها صدى واضحا في الكتابات التي تنتمي إلى هذه المرحلة، حيث عكست في أغلبها طبيعة النظرة التي أصبحت تحكم الساسة الاسبان تجاه قضية المغرب.

فبدون التخلي عن أطروحات الاديولوجية الاستعمارية القديمة بما تقتضيه من الدفاع عن المكتسبات والحقوق التاريخية الاسبانية بالمغرب، كما لمسناها مع كتابات المرحلة السابقة فإن صورة المغرب، ومختلف أوجه أوضاع أصبحت مع كتابات هذه المرحلة تبدو أقل ضبابية وغرائبية، وأكثر اقترابا من الواقع بحيث كلما تقدمت في تقصيها لأوضاع المنطقة ودراستها، تبين لها جهل الاسبان بها، وعدم معرفتهم لها، جهل كان يتقاسمه سواء الرأي العام أو حتى الطبقة السياسية نفسها، فقد اعترفت عدة شخصيات حكومية وبرلمانية آنذاك أنها كانت لا تعرف عن المغرب شيئا، كما صرح بذلك وزير الخارجية عند زيارته للمغرب سنة 1932.

لذلك ستُبذل عدة مجهودات كان الغرض منها مقاربة لطبيعة الوضوح بالمغرب، تجلت في تعدد زيارات المسؤولين الحكوميين والبرلمانيين، وتكوين اللجان من أجل تقصي سير العمل الاستعماري وإرسال البعثات العلمية، وتنظيم رحلات استكشافية للطلبة إلى المغرب.

فمثل هذه المجهودات ساعدت على تقديم البحث الاسباني المتعلق بالمغرب، إذ أصبحت المعلومات المتداولة والأبحاث المنجزة أكثر استيعابا لمعطيات منطقة الحماية الطبيعية والبشرية فالتمييز أصبح واضحا بين مختلف الجهات حسب خصوصياتها الطوبوغرافية والمناخية والنباتية، وحسب ما توفره من إمكانيات الاستغلال

الفلاحي والمنجمي وتطوير العمل الاستعماري كما نجد ذلك في كتابات Ruiz ALBENIS و Torrejon Montero.

كما حضي العنصر البشري وما يرتبط به من عناصر الحياة الاجتماعية باهتمام واضح من طرف الباحثين الاسبان لا سيما العنصر البربري الريفي، حيث حضيت لغته وعاداته وتقاليده ومسكنه باهتمام دارسين أمثال Blanca IZAGA و Angelo CHIRELLI و IBañez Robledo وقامت المراقبات العسكرية INTERVENCIONES Mititares بما كان لها من سيطرة على مختلف قبائل المنطقة بإعداد مونوغرافيات وتقارير تهم مجالات القبائل الخاضعة لنفودهم، وتمد الدارس بمعلومات هامة عن طبيعة الأوضاع السائدة آنذاك.

ويتضح جليا لدى كتابات هذه المرحلة أن الحافز الذي كان يحكمها ويوجه هدفها واهتماماتها، من خلال ما قدمته من معطيات ووفرته من معلومات، هو الرغبة في الاستفادة من المؤهلات القابلة للاستغلال، والاستعانة في ذلك بالتجربة الفرنسية.

غير أنه بقدر ما كانت هذه الكتابات تلامس واقع المنطقة وتتعرف على أوضاعها، كلما تجلى لها وللمسؤولين الاسبان حدود الامكانيات التي توفرها المنطقة وضعف، مواردها مقارنة مع منطقة الحماية الفرنسية وبالرغم من ذلك فإن الجمهورية الاسبانية التي أعلنت تشبتها بإلتزاماتها الاستعمارية بالمغرب الذي كلف اسبانيا تضحيات مالية وبشرية باهضة، سوف تجد في منطقة حمايتها وسيلة وجسرا للاقتراب من العالم العربي الاسلامي الذي كان يعادي القوة المنافسة لها آنذاك بالمغرب ألا وهي فرنسا، اقتراب يخلو من أهداف سياسية واقتصادية، سيما وأنه تزامن مع فترة كانت فيه اسبانيا تبحث لها عن مكانة وسط أوربا، وعن مجال نفود يحقق لها ذلك، مجال — العالم العربي الاسلامي — كانت تعتبر نفسها أقرب إليه تاريخيا وحضاريا.

على أساس هذه الاعتبارات ولظروف تهم التطور الفكري والثقافي في تلك المرحلة، نشطت حركة الاستعراب الاسباني Arabismo Español واستأثرت بالريادة فيها أسماء بارزة كما هو الشأن لاسين بلاسيوس Asin Palacios وغرسيا

غوميس Garcia Gomez وغونساليس بلنسية Gonzalez Palencia، وهؤلاء ساهموا في تطوير الدراسات المتعلقة بالحضارة الأندلسية العربية وامتداداتها المغربية الاسبانية.

وقد تعزز هذا التوجه نحو العالم العربي، بإنشاء مراكز للدراسات العربية في كل من غرناطة ومدريد سنة 1932، وتوفرهما على مجلة «الأندلس» AL Andaluz، واستقدام الطلبة العرب للدراسة بتلك المراكز وإنشاء الجمعية العربية الاسبانية التي تأسست بمدريد سنة 1933 وكان من بين أعضاءها البارزين الأمير شكيب أرسلان الذي كان يحضى وقتها بمكانة مرموقة وسط العالم الاسلامي، ويعتبر موجها للحركات الوطنية العربية ومرشدالها ومن بينها الحركة الوطنية المغربية.

إن كل هذه المعطيات كان لها تأثير واضح على مستوى الخطاب الذي تداولته الكتابات آنذاك، فعوض الحديث عن الحقوق التاريخية كما تداولتها كتابات الفترة السابقة أصبح الحديث يتركز على الارث التاريخي والحضاري الذي يجمع بين إسبانيا والمغرب، إلى جانب التغني بالأصول المشتركة بين العدوتين والتأثير المتبادل بينهما على جميع الأصعدة، وقد ساهم في ترسيخ هذا التوجه صحوة الحركة الأندلسية Andalucismo التي تبلورت في نطاق حركة استقلال الجهات، Autonomias التي عرفتها اسبانيا على عهد الجمهورية الثانية، حيث كانت تشيد بتلك التجربة التاريخية والحضارية التي تحققت بفعل انصهار المؤثرات المغربية العربية والاسلامية، إلى جانب الاهتمام بمساهمات اليهود السفرديين الذين استقروا بالمغرب في تلك التجربة.

وعموما فإن الانتاج الكولونيالي الاسباني خلال هذه الفترة، والذي بقي يحمل أطروحات الاديولوجية الاستعمارية والاستفراقية مع بعض التلوينات الناتجة عن طبيعة التطورات والمشاكل السياسية التي أفرزتها المرحلة الجمهورية، حاول أكثر من سابقه بذل مجهود لفهم أوضاع المنطقة وعيا منه ومن أصحابه بأهمية ذلك بالنسبة لخدمة مصالح الاستعمار الاسباني، وأيضا تدارك النقص مقارنة مع البحث الكولونيالي الفرنسي الذي استفادت الكتابات والأبحاث الاسبانية منه سواء على صعيد تبني بعض مقولاته وأطروحاته كما هو الشأن لكتابات دوفوكول De Foucauld وإركمان Erkmanوبلير Michaux Bellaire وغيرهم ممن يمثلون كتابات المدرسة الاستعمارية الفرنسية.

المرحلة الثالثة ــ المرحلة الفرنكاوية :

لا تخفى الأهمية التي شكلها المغرب بالنسبة لنظام الجنرال فرانكو سواء على صعيد الدعم الاستراتيجي والمادي والبشري الذي قدمه خلال الحرب الأهلية الأهلية الاسبانية لصالح التمرد العسكري الفرنكاوي، الذي وجد فيه قاعدة حيوية ضمنت نجاحه ومكنته من القضاء على النظام الجمهوري. كما سيجد ذلك النظام في المغرب بعد استتباب الوضع له داخل اسبانيا، وسيلة لفك العزلة التي أصبح يعيشها بعد الحرب العالمية الثانية عن طريق مغازلة المجموعة العربية بسياسته المغربية كي تخفف من الحصار الذي ضربه عليه المجتمع الدولي داخل هيئة الامم المتحدة.

فنتيجة لهذه المعطيات سوف يحضى المغرب بمكانة هامة من طرف كتابات المرحلة الفرنكاوية حيث أولته عناية خاصة، لا سيما على صعيد التركيز على بعض جوانبه الحضارية والتاريخية وحاضره الاستعماري، وقد ساهم النظام الفرنكاوي بكيفية واضحة بتوجيه البحث الاستعماري المتعلق بالمغرب عن طريق تقوية وتدعيم المؤسسات الساهرة على توجيه ذلك البحث كما هو الشأن للمجلس الأعلى للابحاث العلمية ConseJo Superior de investigaciones cientificas، ومعهد الدراسات الافريقية Instituto de Estudios Africano ومعهد الدراسات السياسية Instituto de Estudios politicos، هذا داخل إسبانيا، أما بالمغرب فقد أقام النظام مجموعة من المراكز والمعاهد العلمية كمعهد مولاي الحسن، ومعهد الجنرال فرانكو، وكل هذه المؤسسات كانت خاضعة لتوجيهات السياسة الفرنكاوية بالمغرب.

فهذه العناية الكبيرة التي أولاها النظام الفرنكاوي للمغرب كانت من بين نتائجها تراكما على صعيد البحث والدراسات والكتابات المتعلقة بالمغرب، والتي يمكن تصنيفها صنفين :

ــ صنف تتجلى فيه بوضوح اديولوجية النظام الفرنكاوي والانحياز الواضح لسياسته، حيث الكتابات في أغلبها تتغنى بمنجزات ذلك النظام وما حققه من أعمال لصالح المغرب، منتقدة في ذلك سياسة النظام الجمهوري التي انحرفت، حسب زعم أصحابها، عن العمل الذي قامت به اسبانيا بالمغرب والذي كلفها تضحيات ضخمة، لجهلها وجهل طبقتها السياسية بأهمية المغرب بالنسبة لمصالح إسبانيا الوطنية.

وقد ركز هذا الصنف على الجانب الحضاري والروحي لعمل النظام الفرنكاوي من خلال الاهتمام الذي انصب على التعليم الديني، والمحافظة على القيم الروحية والاخلاقية للشعب المغربي والعناية بتراثه والمحافظة عليه إن إثارة مثل هذه القضايا من طرف أصحاب هذا الصنف من الانتاج الكولونيالي الاسباني كان يساير رغبة النظام في الاقتراب من العالم العربي الاسلامي في محاولة لاقناعه بأن ما تقوم به إسبانيا بالمغرب هو من صميم رسالة حضارية وروحية، وإحساس بالواجب التاريخي، علما من ذلك النظام بما يمكن أن تلعبه دول ذلك العالم من تخفيف حدة الحصار والعزلة الدوليين التي كان يعاني منها، ويكفي الاستشهاد في هذا الصدد بما تضمنته كتابات غرسيا فيغراس G. Figuras وأركيس قرناندس F.ARQUES و Epifiano للوقوف على ذلك، ولملامسة الخطاب الذي تبنته والذي أصبح يدافع عن وحدة المغرب وسكانه الذين أصبحوا ينعتون بالمغاربة عوض كلمة موروس Moros أو أهالي Indigenas والأمر هنا لا يحتاج إلى بدل مجهود كبير لفهم طبيعة ذلك التغيير المتربط بالخصوص بأطماع الجنرال فرانكو التوسعية وعودة الحنين للكلام عن الامبراطورية El Imperio، وقد تزامن ذلك بالخصوص مع السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، وما حققته خلالها ألمانيا من انتصارات على فرنسا التي كانت تقتسم مع اسبانيا السيطرة على المغرب لذلك بدأت تراود الجنرال فرانكو فكرة القيام مقام فرنسا في حمايتها للمغرب، والانتقام من الحيف الذي طال اسبانيا عندما تم تقسيم المغرب واستئثار فرنسا بالجزء الأوفر منه.

أما الصنف الثاني فالبرغم من تأثره بالمنطلقات الاستعمارية فهو ينطوي على أهمية علمية بارزة من حيث طبيعة البحث وجدية التناول، وكذلك من حيث أن أصحاب هذا الصنف من الانتاج، أصبحوا أكثر ارتباطا بالبحث الاكاديمي والجامعي منه بسلطات الحماية ومؤسساتها.

وقد شملت مجالات دراساتهم وأبحاثهم مواضيع مختلفة وهامة، ففي ميدان تاريخ المغرب عبر مختلف عصوره وبارتباطه مع تاريخ الأندلس، تبرز أسماء كل من طراديل Taradell وويسي ميراندا Huici Miranda وبكيكوا وفي ميدان الدراسات الجغرافية والجيولوجية نجد إرناندث باتشيكو Hernandez Pacheco وأليسيا مدينه Alicia

Medina، وفي الهندسة المعمارية الاسلامية والأندلسية هناك مساهمات طوريس بالباس Torres Balbas وفي ميدان الموسيقى الأندلسية، العربية واليهودية يبرز لاريا بالسين Larrea Palacia، وقد استمرت مساهمات بعض هؤلاء حتى بعد المرحلة الاستعمارية.

إن كل ما سبق ذكره من ملاحظات تهم التأليف الكولونيالي الاسباني سواء تعلق الأمر بمراحله أو بطبيعة خطابه ومضمونه، تهدف أساسا إلى إثارة اهتمام الباحثين المغاربة لما ينطوي عليه جزء هام من ذلك التأليف من دقة ومجهود علمي واضح سيساعد على فهم ومقاربة عدة قضايا وجوانب من أوضاع المغرب كما سيسمح ذلك برصد طبيعة النظرة التي كانت تحكم الاستفراق الاسباني تجاه تلك القضايا والجوانب، وماعرفته من تلوينات ومتغيرات حسب طبيعة المراحل التي مر منها الاستعمار الاسباني، وأوليات السياسة الاستعمارية في علاقاتها بطبيعة الانظمة الحاكمة التي تعاقبت على السلط داخل اسبانيا.